بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحياء هو العنصر الأخير الوحيد الذى تعتمد عليه الحياة الفردية ، والحياة العائلية ، ثم الحياة القبلية ، و القومية ، و الحياة الانسانية فى الأخير ، فى نهوضها من عثارها و غسلها لوصمتها و عارها ، و تستعين به ، وتأوى إليه الرسالات السماوية ، و التعاليم الدينية والخلقية فى دورها ، لذلك كثرت حوله الأمثال و الحكم ، ونظمت فيه القصائد و شاعت الأساطير و القصص ، و عنيت به التعاليم الخلقية والنظم التربوية ، فى كل أمة وعصر ، و قد جاء فى الحديث الصحيح « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : «إذا لم تستحى فاصنع ما شئت » . (١)

لم ينظر الناس فى يوم من الأيام إلى «السيد الرئيس» كشخصية دينية ، تحيط بها هالة من الورع والروحانية والقدس ، ولم يطلبوا

(١) الجامع الصحيح للبخارى .

منه فى أشد غلوهم فى عصاميته وعبقريته ، أن يكون مثل نورالدين الزنكى فى تدينه و عبادته ، ولامثل صلاح الدين الأيوبى فى صلاحه و زهادته ، فان عصرهما قد مضى، و إن التربية التى كانت تنشئ أمثال هؤلاء القادة فى المجتمع الاسلامى قد ضعفت أو انقطعت ، و لكل عصر حكمه ورجاله ، و لكن كانوا ينتظرون منه أن يكون القائد المنتصر ، والزعيم الموفق ، و على أقل تقدير ، و فى آخر نقطة من التنازل، العربى الغيور الذى يأبى الضيم ويفضل الموت فى ساحة القتال على الحياة فى قصر الرياسة ، وأن يكون أحق بما قاله السلطان فتح على المشهور « بتيبو » الذى حارب الانجليز إلى آخر أنفاسه و سقط مضرجا بالدماء فى المعركة الأخيرة (١٧٩٩) « إن ساعة من حياة الأسد أفضل من مأة سنة من حياة ابن آوى » و كانوا ينتظرون منه أن يغسل عن الأمة العربية ، وعن العالم العربى - إذا لم نقل العالم الاسلامى - عار الهزيمة الذى لحقه فى المعركة الأولى ، يوم لم يكن « السيد الرئيس » قائدها و مدبرهـــا ، فهو العصامى الذى ولدته هـــذه الظروف الشاذة ، و الأحاسيس المرة اللاذعة ، التى كان يعيش فيها العالم العربى ، و كانت تعيش فيهـا

مصر بصفة خاصة ، و أثارته قضية الأسلحة الفاسدة ، و ضعف القيادة فى العالم العربى ، و جبن زعماء العرب ، إنهم كانوا ينتظرون منه - و لهم كل حق - بعد ماسمعوا خطبه و وعوده ، و بعد ماشاهدوا انتصاره الرائع فى معركة «القنال» أن يغير اتجاه التاريخ ، و أن ينحو بالعالم العربى نحواً جديداً ، و يسترد «الدرة المغصوبة» و يعيد إلى الأمة العربية اعتبارها وكرامتها ، ومركزها القيادى فى خارطة العالم الجديد .

وإذا لم يتحقق ذلك بسبب جوانب الضعف التى توجد فى حياة الأمة العربية و كيانها ، و عناد الغرب ، وقرب العهد بالزمن الفاسد ، والحكم الفاسد ، فلاشك أنه سيستطيع أن يرد كل عدوان على أعقابه مدحوراً مكسوراً ، و يحافظ البقية الباقية من كرامة الأمة ، وقدس الأرض الاسلامية ، فاذا لم يكن « بطل حطين » و لم يكن فى مأثرته وعظمته مثل صلاح الدين ، فسيكون على أقل تقدير بطل «غالى بولى» و «سقاريا» و يمثل دور «كمال أتاتورك» فى إنقاذ تركيا ، و استرداد كرامتها ، و إجلاء الأجنى عن كل جزء من أجزاء الوطن ، و الممكة الواسعة التى بلغت منتهى

الضعف ، و تكالبت عليها الدول الغربية ،و تداعت عليها كتداعى الأكلة على القصعة ، وإذا لم يمثل هـــذا الدور الرائع لبعد النسبة بين الشعب الذى عاش بين السيف والقنا ، و على صهوات الخيل، و يظل يقارع الدول الأوربيـة الكبرى خمسة قرون متوالية ، و بين شعب لم يخض الحرب و لم يجرب القتال، و لم يعرف التقشف و الجلاد منذ قرون ، فقد كان له أن يمثل دور قادة فى الشرق و الغرب، هجمت على بلادهم قوات تفوق قوتهم الحربية مراراً كثيرة، و أخذوا على غرة ، و كانوا يحـــكمون شعوبا عاشت فى العبودية الذليلة مدة طويلة ، لم تعرف فيها حمل السلاح و خرجوا من هذه المعارك ظافرين منتصرين. أشرف و أعز مما كانوا بالأمس

و لكن كل ذلك لم يقع ، و الذى وقع و تسامع به الناس، و ملئت به الصحف ، و كان حديث كل ناد ، و حاضر و باد ، هو أن أراضى عربية عريقة فى الاسلام والعربية ، والأرض البكر التى لم تطأها أقدام الفاتحين منذ فتحها الاسلام ، دخلت فى حوزة اليهود المغضوب عليهم ، المشردين فى الآفاق ، واستولوا على المسجد الأقصى ، لأول مرة فى تاريخهم الطويل الذى يمتد على ألفى سنة ،

وانقطعت سنة البكاء عند المبكى فى المسجد الأقصى ، التى توارثتها الأجيال اليهودية ، و تواصى بها الفقهاء والعلماء ، و الأجداد و الآباء ، و أفتى بالغاء هذه الشعيرة الدينية «الحاخام» فلا داعى إلى ذلك بعد ما تملكه اليهود ، وضيع المسلمون والعرب الشئ الكثير من رصيدهم التاريخى فضعفت الثقـــة بأحاديث الفتوح الاسلامية ، وأخبار الفروسية العربية ، وذل المسلمون و العرب جميعاً فى عيون « المواطنين » ، و صاروا ضحكة للمستهزئين الشامتين .

لقد وقع أقل من هذا لرئيس وزارة ( ١ ) فى حكومة من أكبر حكومات العالم ، فتغيب وتوارى عن أعين الناس ، و طوى نفسه قبل أن تطويه يد الأجل ، فما سمع الناس له حديثاً ، و ما رأوا له أثراً فى الحياة الشعبية ولووقع هذا فى بلد حر يملك زمام أمره ، و فى بلد واع يميز بين المخفق و المنتصر لاستغنوا عنه فى أول لحظة ، و قد استغنت بعض الشعوب الحرة العالمية عن بعض القادة الذين كسبوا المعركة ، و توجوا أمتهم و شعبهم بالانتصار الرائع ، والفتح المبين ، حين تغيرت الأوضاع ، و اقتضت البلاد

---

( ٢ ) هو المستر ايدن رئيس الوزارة البريطانية الأسبق .

قيادة من نوع جديد ، و نمطاً من تفكير جديد ، و لئلا يبقى الشعب مرتبطاً بشخص ، و لئلا يقال إنها مأثرة رجل و بطولته ، لامأثرة الأمة وبطولتها. دع عنك حديث إقالة خالد بن الوليد رضى الله عنه فى وسط معركة لم يشهد التاريخ الاسلامى أدق منها و أشد ، فذاك حديث عصر لا يقاس على العصور ، و تلك قصة جيل لا يقاس عليه الأجيال ، و لكن انظر كيف استغنى الشعب الانجليزى عن بطل الحرب العالمية الأولى « لوئيد جارج » فلم يختره رئيس الوزارة البريطانية للمرة الثانية وكيف استغنى عن بطل الحرب العالمية الثانية « ونستن تشرشل » فلم يوله رئاسة الوزارة بعد ما وضعت الحرب أوزارها ، وجاءت أيام البناء والتكوين ، وانتخب الشعب الانجليزى حزب العمال بأكثرية ساحقة ، فأثبت أنه لايعبد الرجال ، وأنه لا يتخذ القادة و الزعماء آلهة يعبدون ، و أن بيده الحل و العقد ، و النقض و الابرام ، و أن الشعب فوق الرجال و الأشخاص.

لقد كان الشعب العربى الاسلامى الذى اعتاد فى تاريخه الطويل أن ينتقد الخلفاء والعلماء والفقهاء ، والذى لا يعرف تقديس

الأشخاص ، و عبادة الهياكل و الأصنام ، أحق بهذه الحرية ، و الشجاعة الخلقية ، والحمية الدينية . و بأن يحاسب الرجال مهما علت منزلتهم ، و كثرت مآثرهم ، و أن يتتبع الأسباب الحقيقية فى النكسة المخزية ، و الهزيمة الفاضحة ، ثم يعطى كل ذى حق حقه من المكافأة أو اللوم و المحاسبة .

و لكن الشعب المصرى عاد فاختار القائد الأول مرة ثانية فى وضع هو أشبه بتمثيل قصة ، أو رواية متقنة ، ذات فصول معلومة معينة ، و إن بداية هذه القصة و نهايتها ليست إلا تصديقاً للقرآن ، وتفسيراً لقوله تعالى : (فاستخف قومه فأطاعوه )

ألا إن الاسلام لم ينهزم فى هذه المعركة لأنه لم يخضها ، و لم تسمح له القيادة الرئيسية بأن يخوضها بطاقاته ، ويلعب دوره ، كما لعب فى المعارك الحاسمة الأولى و يكسب المعركة ، قد منعته القيادة عن ذلك ، لئلا يتمكن من تحقيق وجوده و إثبات صلاحيته ، و لئلا يرد الفضل إليه ، و إلى المؤمنين به ، و الدعاة إليه .

و لم ينهزم فيها العرب ، لأنهم لم يخوضوها أحراراً ، زمامهم بيدهم ، والذين خاضوها ، كالأردنيين ، أثبتوا بطولتهم و إيمانهم ،

ودافعو عن المسجد الأقصى ، دفاع الرجال ، وأعاد التاريخ نفسه، و إنما كانت محنة القومية العربية، ومحنـــة القيادة التى تزعمتها ، و ملأت الدنيا دعاوى وأقوالا . و وعوداً و مواعيـــد ، فانهزمت الهزيمة التى لا هزيمـة بعدهـا ، وأثبتت أنها كانت قربة منفوخة ، فلما طعنت بابرة ، خرج مافيها ، وكان كما جاء فى التصوير القرآنى المعجز : « كسراب بقيعة يحسبـه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً * ووجد الله عنده فوفاه حسابه * والله سريع الحساب * »

# فاستخف قومه فأطاعوه

بقلم

الأستاذ صاحب التوقيع

مطبعة ندوة العلماء لكهنؤ ( الهند )